

محاضرة

أثر العقيدة في ترقية القلوب

فضيلة الشيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا..
أما بعد..

أولاً أحييكم جميعاً بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
أيها الإخوة..

لا يخفى على كل مسلم عظم شأن إصلاح القلب وتزكيته وتطهيره، وعمارته بطاعة الله -تبارك وتعالى- والإيمان به؛ إذ إن القلب هو أساس الأعمال ومنبعها وروحها، ولا نماء للأعمال ولا زكاء إلا إذا صلح القلب.

ومن هنا كان متأكدًا على كل مسلم أن يعنى أولاً بصلاح قلبه وتزكيته وتطهيره وعمارته بالإيمان الصادق واليقين الراسخ والثقة بالله -تبارك وتعالى-، وقد كان رسولنا -صلوات الله وسلامه عليه- في أحاديثه الكثيرة الشريفة وكذلك في أدعيته العظيمة المنيعة يعنى بأمر القلب أتم العناية، ويوصي بالاهتمام به.

وجاء عنه في أدعيته -عليه الصلاة والسلام- أدعية كثيرة بها سؤال الله وإلحاحه والإقبال عليه بإصلاح القلب، كان يقول -عليه الصلاة والسلام- إذا خرّ لله ساجداً: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١)، ويقول -عليه الصلاة والسلام- في دعائه: «اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ»^(٢)، ويقول -عليه الصلاة والسلام- في دعائه: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»^(٣) ويقول -عليه الصلاة والسلام- كما في خطبه الحاجة التي كان يقولها بين يدي خطبه -عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ

(١) أخرجه الترمذي (ح ٢١٤٠)، وابن ماجه (ح ٣٨٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٣٦٨)، ومسلم (كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر الفتن وغيره، ح ٥٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم رحمه الله (ح ٢٧٢٢) من حديث زيد بن الأرقم رضي الله عنه.

أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»^(١) ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعائه: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ»^(٢).

والأحاديث والأدعية النبوية في هذا المعنى كثيرة جدًا، ومن يُطالع كتب الحديث وكتب الأذكار يجد من ذلك الشيء الكثير، ولهذا - كما أسلفت - كان متأكدًا على كل مسلم أن يُعنى أولاً بإصلاح قلبه وتزكيته وعمارته بالخير والإيمان والثقة بالله والإقبال عليه وخشيته ﷺ والجِدِّ في طاعته، ونحو ذلك من الأعمال.

ولا يخفاكم أنَّ القلب له أعمالٌ كثيرة، كما أنَّ للبدن أعمالًا، وأعمال القلب وما يقوم به من طاعة الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - والإقبال عليه ﷺ يترتب عليه صلاح البدن.

ومن هنا قال - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - في الحديث الصحيح الثابت: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٣) وجاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (الْقَلْبُ مَلِكٌ، وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنُودُهُ).^(٤) ذكر أثر أبي هريرة هذا وحديث النَّبِيِّ ﷺ المتقدم شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كتابه «الإيمان» ثم عَقَّبَ عليه بقوله: (وكلام النَّبِيِّ ﷺ أدقُّ وأبلغ؛ ذلك أَنَّهُ قد يكون الملك صالحًا ويفسد بعض الجند، وقد يكون فاسدًا ويصلح بعض الجند، بينما القلب إذا صَلَحَ لا يمكن أن تتخلف الجوارح عن مراده). إذا وَجَدَ في القلب الإيمان الصحيح والثقة بالله والصِّدْقُ في الإقبال على الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فَإِنَّ الجوارح كلها تتبع القلب، وفي هذا يقول شيخ الإسلام رَضِيَ اللَّهُ فِي كتاب الإيمان: (إِنَّ الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلوب؛ لَأَنَّهَا تتبع) ولهذا القلب لا يخلو في أحواله من أمرين: معرفة وإرادة.

المعرفة؛ إن لم تكن معرفة صحيحة وعلمًا سليمًا متلقًى من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فَإِنَّ القلب حينئذ

(١) أخرجه الترمذي (ح ١١٥) من حديث عبد الله بن مسعود، وانظر تخريج الحديث في رسالة الألباني «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه».

(٢) أخرجه الترمذي (ح ٣٥٢٩) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (ح ٢٧٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٢٥٧)، برقم (١٠٨)، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٤٠٧٤).

يُشغل بمعارف فاسدة وعلوم مضرة وأوهام وتخثرّصات وخيالات فيمتلئ بها قلبه فيفسد القلب ويفسد البدن .

والإرادة هي العزم الذي يكون في قلب الإنسان، فإذا لم يكن في القلب عزم صادق على طاعة الله والقيام بالعلم الذي تعلّمه، ونية صحيحة، وإقبال وبذل وجهد ومجاهدة، إذا لم يكن في القلب هذا تجاه طاعة الله تعالى فإنَّ إرادة القلب تتجه إلى أمور منحطة، وأشياء دنيّة وحقيرة، فتجد قلب بعض النَّاس يدور حول أشياء حقيرة جدًّا وأُمور منحطّة وأشياء لا قيمة لها، بينما قلوب آخرين تدور حول العرش، تفكر في الآخرة ولقاء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- والجنة والنَّار، همّتهم عالية، وقلوبهم كبيرة، وأهدافهم سامية جدًّا بينما أولئك الذين فسدت معارفهم القلبية وإراداتهم تجد همومهم لا تتجاوز أنوفهم، ولا تتجاوز حدَّ بصر ما يشاهدونه ويرونه.

ولهذا لزم -كما قدّمت- كلّ مسلم أن يُعني بإصلاح قلبه وعمارته بالإيمان الصّحيح، والإقبال على الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ليشفوَ بذلك بدنه جميعه ولتصحّ بذلك أعماله وليكون بذلك حسن العمل حسن الطاعة حسن الإقبال على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إصلاح القلب إنّما يكون بالأمرين المتقدمين: المعرفة والإرادة، المعرفة الصّحيحة بالله وبما يحبّه الله وبما يقرب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

المعرفة بكتابه وسنة نبيّه ﷺ.

المعرفة بأصول الإيمان وحقائق الدّين وأسس اليقين.

المعرفة بذلك كلّ، والمعرفة يتفاوت النَّاس فيها تفاوتًا عظيمًا وليسوا في المعرفة على درجة سواء

واحدة ..

ثم الإرادة؛ إرادة الخير والهمة والعزم على القيام بطاعة الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- والقيام بما يقرب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والهمة والإرادة والعزيمة ينبغي أن تكون صادقة، وأن تكون فيما يقرب إلى الله، فيعزم الإنسان ويكون عزمه صادقًا ويتخير من الأمور التي يعزم على القيام بها ما يقربه إلى الله ويدنيه من رضاه ﷻ.

وفي هذا يتنافس المتنافسون، ويتفاوت النَّاس في هذا تفاوتًا عظيمًا، ولهذا أعمال القلب يتفاوت النَّاس فيها، المعرفة والإرادة وكلُّ الأعمال القلبية خلافاً لمن قال من المتكلّمين: إنّ النَّاس فيما يقوم بقلوبهم سواء ليس بينهم تفاوت، وإنّما هم على درجة واحدة ومستوى واحد، وإنّما التفاضل في

الأعمال فقط، هذا غير صحيح؛ بل هذا كلام مصادم لنصوص الشريعة وأدلة الكتاب والسنة الكثيرة الدالة على تفاوت الناس في أعمال القلوب كما أنهم كذلك متفاوتون في أعمال الجوارح.

الناس متفاوتون في أعمال القلوب تفاوتاً عظيماً وبحسب تفاوتهم في أعمال القلوب تفاوت أعمالهم الظاهرة، وقد يقوم أناس بأعمال ظاهرة على هيئة متساوية لا تجد بينهم في الظاهر تفاوتاً ولا تمايزاً ولا تبايناً؛ بينما تتفاوت هذه الأعمال في قبولها عند الله ومنزلتها عند الله -تبارك وتعالى- بحسب ما قام في قلوب أهلها من الإيمان والثقة بالله تبارك وتعالى.

وفي هذا الذي نشير إليه يزول الإشكال الذي قد يورده البعض أو بعضهم على حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- في قصة صاحب البطاقة، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده والترمذي وغيره من أهل العلم بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، وينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقال له: أتتكر من هذا شيئاً؟ فيهاب الرجل ويقول: لا، فيقال: ألك حسنة؟ فيقول: لا. فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، فيقول الرجل: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقول الله: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع البطاقة في كفة والسجلات في كفة فثقلت البطاقة وطاشت السجلات، ولا يثقل مع اسم الله شيء»^(١).

هذا الرجل الذي ثقلت بطاقته كما جاء في معنى الحديث إنما ثقلت بحسب ما قام في قلبه من اليقين والإيمان بالله -تبارك وتعالى-، وإلا فإن هناك أيضاً كما دلت نصوص كثيرة جداً هناك من يقول: (لا إله إلا الله) وتكون عنده ذنوب وخطايا وآثام؛ لكنه مع ذلك يدخل النار، مع أنه يقول: (لا إله إلا الله) ويتلفظ بها ويعمل بمقتضاها؛ لكنه قصر في جوانب منها تقصيراً كبيراً وارتكب كبائر الإثم وارتكب ما يغضب الله -تبارك وتعالى- فاستحق بذلك عقاب الله ونال بذلك سخط الله فدخل النار؛ لكنه لا يخلد فيها؛ لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك؛ ولهذا جاء في أحاديث كثيرة جداً: «أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(٢). وهذا يدل على أن بعض من يقول: (لا إله إلا الله) قد يدخل النار؛ لكنه لا يخلد فيها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٦٣٩)، وابن ماجه (ح٤٣٠٠)، وصححه الألباني في «الصحيحه» (ح١٣٥) وصحح إسناده في «المسند» أحمد شاكر (ح٦٩٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (ح٢٥٩٣) من حديث أنس، وفي غيره، وصححه الألباني.

يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨] وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ، أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ»^(١) وهذا يعني أن قائل: (لا إله إلا الله) لا محالة داخل الجنة؛ لكنه ربّما إن كان عنده خطايا كثيرة وذنوب عديدة ربّما يمرّ قبل ذلك بمرحلة تعذيبٍ في النَّار؛ لأنّ الجنة دار طيب محضٍ خالص فلا يدخلها إلّا الطّاهر النّقي الصّافي الذي ليس فيه شائبة، ولهذا إن كان في الإنسان شيء من الشّوائب ولم تطهّر فإنّها تطهّر في نار جهنم والعياذ بالله . ولهذا قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (هناك ثلاثة أنهر في الدُّنيا - من تطهّر بها تطهّر، وإلّا طهّره الله في نار جهنم والعياذ بالله، ثم ذكرها وهي الحسنات الماحية والتّوبة النصوح والمصائب المكمّلة)، هذه بمثابة الأنهر يتطهر فيها النّاس ويتنقّون فيها من ذنوبهم وخطاياهم التي تقع منهم في هذه الحياة .

فمن لم يتطهّر بذلك طهّر في نار جهنم يوم القيامة إذا كان من أهل (لا إله إلا الله) وعُذّب على قدر ذنوبه وخطاياهم، ثم ينتهي حاله إلى دخول الجنّة؛ ولهذا أهل الجنة يتفاوتون في دخولها، فمنهم من يدخلها دخولاً أوليّاً بدون حساب ولا عقاب، ومنهم من لا يدخلها دخولاً أوليّاً؛ بل يمرّ قبل دخولها بمرحلة عذاب.

ولهذا في سورة فاطر عندما ذكر -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أقسام المؤمنين أهل الجنّة قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿فَاطِر﴾، قوله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هنا: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الواو هنا عظيم شأنها وجليل قدرها ولها منزلة كبيرة جدّاً في قلوب العلماء ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ لأنّ هذه الواو أفادت أنّ السّابق بالخيرات والمقتصد والظالم لنفسه كلّهم يدخلون الجنة - شملتهم هذه الواو - ولهذا الشّيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ يقول: (إنّ هذه الواو ينبغي أن تكتب بماء العيون) ثم يُثني على هذه الواو ويزيد من قدرها ويرفع من شأنها ولها في قلبه وفي قلب غيره من أهل العلم مكانة عالية ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: الظّالم لنفسه والمقتصد والسّابق بالخيرات.

ثم بعد ذلك ذكر -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بعدها عذاب أهل النَّار فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر] هذا شأن أهل النَّار.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/٢٩١)، برقم (٩٦)، من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ.

أما أهل الجنة الذين قال الله عنهم: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فهم الأقسام الثلاثة: سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «الإيمان»: (إنَّ السَّابِق بالخيرات والمقتصد فهذان يدخلان الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ ولكنَّهم يتفاوتون في المنزل في الجنة، أما الظالم لنفسه فلا أنه ظلم نفسه بالمعصية لله دون الشرك فإنه تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار).

أيها الإخوة.. الشاهد فيما تقدّم هو بيان تفاوت النَّاس في أعمالهم الصَّالحة بحسب تفاوتهم فيما قام في قلوبهم من الإيمان لله تبارك وتعالى.

والشَّان كُلُّ الشَّان والخطب كُلُّ الخطب في عمل القلب، ومن المعلوم -أيها الإخوة- أنَّ الأعمال كلّها تتوقّف في قبولها على صحة القلب وصحة ما يقوم به، من شروط قبول الأعمال المعروفة عند عامة المسلمين: الإخلاص، والإخلاص عمل قلبي، فإذا وُجدت أعمال كثيرة ظاهرة جيدة نافعة مفيدة؛ لكنّها ليست قائمة على الإخلاص لا يقبلها الله -تبارك وتعالى- ولا يقيم لها يوم القيامة وزناً؛ بل يكون شأنها كما قال جلّ وعلا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: ١١]، وقال تعالى كما في الحديث القدسي العظيم: «أنا أغني الشُّركاء عن الشُّرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١).

فهذه النصوص وما جاء في معناها كلّها تدلّ على أن الأعمال الظَّاهرة لا يعبأ الله -تبارك وتعالى- بها إلا بما قامت على صحّة الإيمان في القلب وإخلاصه في العمل وابتغاء وجه الله -تبارك وتعالى- به وإرادة ثوابه ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [١٨].

أيها الإخوة..

هذا الذي أتحدّث عنه هو الاعتقاد الذي هو في الحقيقة حياة الإنسان حقيقة، بدون هذا الإيمان

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي يعمر قلب المسلم لا تستقيم جوارحه ولا تستقيم أعماله ولا تزكو راحته الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وإنما تأتي منه الأعمال على صورة ناقصة وعلى هيئة ضعيفة - وعلى حالة رديئة وبدون إقبال، وبدون صدق، وبدون عزيمة، وبدون إرادة وجه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- للعمل، ونحو ذلك من الأمور التي تقوم في القلوب فتخلُّ بالأعمال أو تفسدها، ولهذا لا بد من الاعتقاد ليزكَّو به الإنسان ويصحَّ به عمله ولتستقيم به عبادته لرَبِّه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ولهذا لا حياة حقيقية إلا بالاعتقاد الصحيح المتلقَّى من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

أما بدون العقيدة الصحيحة وبدون الإيمان الصحيح لا حياة للإنسان؛ بل هو ميت، والله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصفه بذلك في القرآن الكريم قال جلَّ وعلا: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فوصفه الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بأنه ميت عندما فقد العقيدة وفقد الإيمان، وصفه بأنه ميت لا حياة فيه مع أنه يجلس ويأكل ويشرب ويتحدث ويذهب ويعود ونحو ذلك إلا أن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصفه بأنه ميِّت؛ لأنَّ قلبه لا إيمان فيه وليس فيه اعتقاد وليس فيه إيمان صحيح، ومن كان كذلك فهو ميِّت وإن كان بين الناس من الأحياء وإن كان يمشي ويأكل ويجيء فهو في الحقيقة ميت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فسمَّى ما جاء به الرسول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- محيياً للناس، وسمَّى -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الوحي روحاً في غير ما آية، قال تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ ۙ اللَّهُ فَلَا سَتَعْلِيْلُوهٖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَافُرُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وسمَّى من ينزل بالوحي وهو جبريل روحاً؛ فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٣٦ عَلَى قَلْبِكَ ۚ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَافُرُ بِالرُّوحِ فِيهَا ۚ﴾ [القدر: ٤] فسمَّى جبريل الذي ينزل بالوحي روحاً؛ لأنَّه لا حياة للناس إلا بالوحي، لا حياة لهم إلا بالإيمان الصحيح، لا حياة لهم إلا بالاعتقاد السليم المتلقَّى من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أيها الإخوة..

العقيدة الصحيحة التي بها حياة القلوب تقوم على أصولٍ ستّة جاءت في كتاب الله وسنة نبيِّه - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وهذه الأصول الستّة هي في حقيقة أمرها وواقع حالها دعائم يقوم عليها إيمان الشخص، وينبني

عليها طاعته الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-؛ ولهذا بحسب هذه الأصول وقيامها في قلب الإنسان يتنامى العمل وتزداد الطاعة ويعظم الخير في الإنسان، ولهذا قال الله -جَلَّ وَعَلَا- في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) وهذا مثل للإيمان، يعني بحسب أصول الإيمان الذي يكون في قلب الإنسان يزكو عنها، ويزداد إقباله على الله وتعظم خشيته منه سُبْحَانَهُ، ويرق قلبه وتكثر أعماله وتزد وتتضاعف بحسب وجود هذه الأصول السَّتَّة وبحسب قيامها في قلب الإنسان.

ولو تأملنا هذه الأصول أصلاً أصلاً، وتأملنا في أدلتها في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ونظرنا في قوّة أثرها على المؤمن، وعِظم عائدتها عليه، وكثرة ما يترتب عليها من الفوائد والآثار الحميدة في الدنيا والآخرة لوجدنا من ذلك الشيء الكثير.

ولو نظرنا في أصل هذه الأصول الستة وهو الإيمان بالله ووجدانيته ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته - لوجدنا لكل ذلك أثراً عظيماً على الإنسان في قلبه ولسانه وجوارحه.

وهكذا الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرُّسل، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بقضاء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وقدره. كل هذا له آثار بليغة على الإنسان في طاعته وإقباله على ربه ﷻ.

وإذا تأملنا -أيها الإخوة- في الإيمان بالله الذي هو أصل من أصول الإيمان عندما يقبل العبد المسلم الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ربّاً خالقاً رازقاً مدبراً لهذا الكون متصرفاً فيه ، وعندما يؤمن بأسمائه العظيمة التي وردت في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وصفاته الجليلة الواردة في الكتاب والسنة ، ويملاً قلبه إيماناً بها وتصديقاً و يقيناً واعتقاداً، كم لذلك من الآثار عليه في أعماله؟

فعندما يؤمن بصفة العلم، أو صفة السَّمْع، أو صفة الرؤية أو غير ذلك من صفات الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- التي وردت في الكتاب والسنة، كم لها من الآثار على الإنسان، وليس المراد بالإيمان بها أن يتلفظ الإنسان بهذه الأمور بلسانه ، أو يمرّها على قلبه مروراً عَرَضاً؛ وإنما يعمر قلبه بذلك ويعمر قلبه بالمشاهدة والاعتراف واليقين بما ورد في كتاب الله وسنة نبيه -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- من أسماء الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصفاته الحسنى العظيمة.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمُّ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) [الحشر].

هذه كلها أسماء دالة على صفات كمال ونعوت جلال للرب -تبارك وتعالى- وكل اسم من هذه الأسماء له عبوديات تخصه وطاعات تخصه، العلم، السمع، البصر وغير ذلك كل ذلك له عبوديات، فعندما يتأمل العبد في أسماء الله -تبارك وتعالى- وما يخصها من عبوديات كم من الآثار التي ستعود عليه في حياته وطاعته لله تبارك وتعالى.

عندما يؤمن العبد بأن الله -تبارك وتعالى- عليم، يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فالغيب عنده شهادة والسر عنده علانية، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. قال تبارك وتعالى في مدح نفسه والثناء عليها في هذه الصفة العظيمة في أول سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١)

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢)، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣)

عندما يؤمن الإنسان المؤمن بعلم الله ﷻ وإطلاعه عليه ورؤيته له في أحواله كلها في غيبه وشهادته في سره وعلنه، في أموره كلها، عندما يعلم أن الله -تبارك وتعالى- مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية؛ فلا شك أن هذا سيكون له أثر على العبد وأثر بالغ في عبادته وطاعته لله -

تبارك وتعالى-، عندما يؤمن العبد بأن الله يراه وأنه ﷻ من فوق سبع سماوات -مطلع على الناس ويرى أعمالهم ويرى حركاتهم ويرى سكناتهم ويرى قلوبهم ويرى ما في قلوبهم من أعمالهم ونياتهم وغير ذلك ويطلع على ذلك كله ﷻ يرى ذلك كله، يرى ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في ظلمة الليل، ويرى جريان الدَّم في عروقها، ويرى كل جزء من أجزائها لا تخفى عليه في هذا الكون خافية، فإذا آمن

العبد بذلك فكم من أثر يكون عليه، عندما يؤمن العبد بأن الله يسمع كلامه، قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله أربنا قريب فنناديه أم بعيد فنناديه؟ قال: «إن ربكم سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- فالله ﷻ سميع لعباده يسمع كلامهم، فلو قام العباد كلهم

على صعيد واحد ونادوا ربهم بلغاتهم المختلفة وألستهم المتباينة وطلباتهم المختلفة لسمع كل طالب ﷻ، لا تختلف عليه الأصوات ولا تختلف عليه اللغات ولا يضره ﷻ إلحاح الملحين ولا طلب

الطالبيين؛ بل يفرح بذلك ﷻ، «يقول جلّ وعلا: يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي: لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتْكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي،

إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَحِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ»^(١) هذا توحيد الله، وهذا هو الإيمان بالله، وهذا هو الاعتقاد الصحيح بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عندما يؤمن المسلم بصفات الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- ونعوته العظيمة التي دلَّ عليها الكتاب وسنة نبيه صَلَّوات الله وسلامه عليه.

يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي كتابه «شرح كلمة الإخلاص» -وهو كتابٌ عظيم النفع-: (رغب رجل في امرأة عربية في الصَّحراء عن نفسها. وقال لها: نحن في مكان لا يرانا فيه أحد إِلَّا الكواكب، فقالت المرأة: وأين مُكَوِّبُهَا؟) - أي خالق الكواكب - ربنا رَحِمَهُ اللهُ لَا يرانا، أَلَا يطلع علينا، امتنعت عن معصية الله بهذه العقيدة المقامة في قلبها، وهو الآخر أيضًا عندما ذكر ربه في هذا الاعتقاد وهذا الإيمان امتنع عن هذه المعصية.

فالإيمان بالله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وصفاته العظيمة الواردة في كتابه وسنة نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- لها أثرٌ بالغٌ على العبد في طاعة الله ومراقبته والإتيان بعبادته على الوجه الذي يرضيه.

وهكذا سائر أصول الإيمان، فالإيمان بالملائكة يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام- في الحديث الصحيح -: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ أَلْتَمَمَ الْقُرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْعِ فَيَنْفَعُ»^(٢) هذا من الإيمان بالملائكة، فعندما يقرأ المسلم في صفات الملائكة ونعوتهم ممَّا يدلُّ على عظمهم وكبر أجسامهم وشدة بطشهم وعظم قوتهم -مما يدلُّ على كمال الخالق رَحِمَهُ اللهُ وعظمته سبحانه، أيضًا كثرتهم وتعددهم وهم جنود الله قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] كم في هذا من أثر على عمل الإنسان وطاعته ومراقبته لله رَحِمَهُ اللهُ، ولهذا في الحديث الصحيح يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام-: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤْنَهَا»^(٣) هؤلاء وكلهم الله بسحب جهنم إلى أرض الحشر-، فما يكون تأثير القلب عندما يتأمل في هذا المنظر العظيم! -سبعون ألف في سبعين ألف هذا عدد الملائكة الذين يجرُّون جهنم ويسحبونها إلى أرض المحشر يوم القيامة، غير الملائكة الذين هم خزنة جهنم ووكلا بتعذيب أهلها ومَّا إلى ذلك.

فإذا آمن العبد بهؤلاء الملائكة وصفاتهم ونعوتهم وأخبارهم التي وردت في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّوات الله وسلامه عليه، كم من الأثر البالغ على العبد وعلى طاعته لله جلَّ وعلا.

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (ح ٢٤٣١) من حديث أبي سعيد رَحِمَهُ اللهُ. وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) أخرجه مسلم (ح ٢٨٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رَحِمَهُ اللهُ.

وهكذا عندما يتأمل المسلم في سائر أمور الإيمان، عندما تتأمل في الإيمان باليوم الآخر بدءاً من دخول الإنسان في قبره.

وعندما تقرأ كتب العقيدة وما ذكره أهل العلم من التفاصيل الكثيرة المأخوذة من الكتاب والسنة مما يكون في القبر وبعده من البعث والحشر والحساب والجزاء والنار ونحو ذلك، كل هذا في الاعتقاد وله الأثر البالغ على العبد في رقة قلبه وخشيته لربه وإقباله على طاعته سبحانه وتعالى.

الشاهد أنه لا إشكال ولا شك ولا ريب بأن العقيدة هي التي لها الأثر البالغ على العبد في أموره كلها؛ في عمله الذي يكون بلسانه والذي يكون بجوارحه، والذي يكون كذلك بقلبه.

وأريد أن أختتم هذه الكلمة بكلام للعلامة ابن القيم رحمه الله عظيم النفع بالغ الأثر، قال رحمه الله في كتابه في مدارج السالكين وأقرؤه عليكم باختصار لبعض ما ذكره رحمه الله، وأسأل الله أن ينفعني به وإياكم به - وبه أختتم هذه الكلمة.

يقول رحمه الله في ذكر بعض الشواهد التي إذا استحضرها العبد وهي تتعلق بالإيمان والاعتقاد، التي إذا استحضرها العبد وعمر قلبه بها وملاً جوانح قلبه بها ازداد إقباله على الله - تبارك وتعالى -، وسابق الرياح في مهامها في الإقبال على الله - تبارك وتعالى - فهي أمور عظيمة نبه عليها رحمه الله في مواطن كثيرة من كتبه وذكرها في كتابه «مدارج السالكين».

يقول رحمه الله: (ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارة يُعلم بها حقيقة الأمر فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة)، يعني الأمور التي ينبغي أن تكون في قلب السائل إلى الله فتسوقه وتدفعه إلى الإقبال على الله تبارك وتعالى، (فأول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا) يعني يتأمل في الدنيا (وحقارتها وقلة وفائها وكثرة جفائها وخسّة شركائها وسرعة انقضائها ..) إلى آخر كلامه رحمه الله.

ثم قال: (فإذا قام في العبد هذا الشاهد منها) يعني من الدنيا (ترحل قلبه عنها وسافر في طلب الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها وأنها هي الحيوان حقاً فأهلها لا يرتحلون منها ولا يظعنون عنها؛ بل هي دار القرار ومحطّ الرحال ومنتهى السير).

ثم قال: (ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدّها واضطرامها وبُعد قعرها وشدة حرّها وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدونهم وقد سيقوا إليها سودّ الوجوه زُرّق العيون والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع وقد تقطعت قلوبهم حسرةً وأسفاً، ﴿وَرَأَوْا

الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ [الكهف] ، فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يُدفعون، وأتى النداء من قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ وَقَفَّوْهُ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٥٤﴾ [الصافات] ثم قيل لهم: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا بُصُورَ ﴿٥٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ [الطور] فإراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يسحبون وفي النار كالحطب يسجرون ﴿ لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبئس اللّحاف وبئس الفراش وإن استغاثوا من شدة العطش يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه فإذا شربوه قَطَعَ أَمْعَاءُهُمْ فِي أَجْوَاهِهِمْ وَصَهَرُوا مَا فِي بَطُونِهِمْ، شرابهم الحميم وطعامهم الزقوم، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٥٧﴾ [فاطر].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات ولبس ثياب الخوف والحذر وأخصب قلبه من مطر أجفانه وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة ويُنضجها ثم يخرجها فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعدَّ الله لأهلها فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فضلا عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور والبهجة والسرور فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذايره فيها، تربتها المسك وحصباؤها الدر وبنائها لبن الذهب والفضة وقصب اللؤلؤ وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلِبَ على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم وُلدان كاللؤلؤ المنشور، وفاكهتهم دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة وغداؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غَوْل ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهد يوم المزيد والنظر إلى وجه الرب - جل جلاله - وسماع كلامه منه بلا واسطة؛ كما قال النبي ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب -

تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم؛ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس] ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»^(١).

فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله، فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهاها فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً، هذا وفوق ذلك شاهد آخر تضحل فيه هذه الشواهد ويغيب به العبد عنها كلها وهو شاهد جلال الرب - تبارك وتعالى - وجماله وكماله وعزّه وسلطانه وقيوميته وعلوه فوق عرشه وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه وخطابه لملائكته وأنبيائه، فإذا شاهده شاهد بقلبه قيوماً قاهراً فوق عبادته مستوياً على عرشه منفرداً بتدبير مملكته أمراً ناهياً مرسلًا رسله، ومنزلاً كتبه يرضى ويغضب، ويشيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعزّ ويذلّ، ويحب ويغضب، ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويقلل إذا استُقبل، أكبر من كلّ شيء، وأعظم من كلّ شيء، وأعز من كلّ شيء، وأقدر من كلّ شيء، وأعلم من كلّ شيء، وأحكم من كلّ شيء ..) إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

و به تنتهي هذه الكلمة التي نسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن ينفعنا وإياكم بها وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يرزقنا جميعاً إيماناً صادقاً و يقيناً راسخاً، وأن يصلح قلوبنا بالإيمان وطاعة الرَّحْمَنِ.

اللَّهُمَّ آت نفوسنا تقواها زكّها أنت خير من زكّاها أنت وليّها ومولاها.

اللَّهُمَّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير، والموت راحة لنا من كلّ شر.

اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

والله أعلم، وصلى الله وسلّم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبينا محمّداً، وعلى آله وأصحابه

أجمعين.



(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.